الماء بين المقدس والطقوس الممارسة

دراسة مونوغرافية في منطقة بئر الذهب تبسة

إبراهيم بن عرفة، جامعة البليدة 2، الجزائر

جمال معتوق، جامعة البليدة 2، الجزائر

ملخص

بمجرد ذكر كلمة طقوس أو طقس وربطه بالتعميد وطقوس الاغتسال والمياه يخيل لأي فرد منا عملية ممارسة سحرية غريبة يمارسها الإنسان في وسطه الاجتماعي إحداها دورة الحياة من خلال الماء فالماء يشكل وحدة مقدسة في جميع الممارسات، فهو بمثابة العنصر الباعث للحياة والدخول من مرحلة إلى مرحلة من مرحلة من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت وجميع الإكتشافات التاريخية والأثرية تؤكد على أن الإنسان لا يستقر في مكان لا يتوفر به الماء، وقد اخترنا هذا الموضوع للبحث في دلالة الماء واستخداماته لدى سكان الجزائر من العصور الغابرة إلى عصرنا المعاصر، حيث شعر الإنسان منذ القدم وأدرك بغرائزه أن الماء هو الحياة، فقام بإنشاء هالة أسطورية وقصص خرافية حول المياه وكانت الغلبة لمن يمتلك الماء ويعمر ضفاف الأنهار والأودية والمصبات فالماء مقدس في جميع الأديان والشرائع، فهو في مرتبة عالية في الممارسات والفكر الديني، فهو الحياة في حد ذاتها، وهذا تقديس كبير للماء وبالتالي فقد كان الماء عنصرا رمزيا للتنظيف والطهارة وغسل الذنوب وحسب الأساطير القديمة فقد ابتدع الإنسان آلهة المياه وعبدت وتقرب إليها بمختلف القرابين والعطايا و نجد رسومات الطاسيلي أنجار والتي تمثل أقدم فترة إعمار في الجزائر وشمال إفريقيا تدل على شواهد مادية حية على المياه ودور المياه في تعمير المستوطنات والمناطق الآهلة بالسكان، وكانت الرسومات جميعها تمثل الكبش والثور وهو ما يدل على عبادة بعل وعبادة أنزار أو الثور وبالتقصي وكمحاولة نظرية نقول بأن أسبقية سكان الطاسيلي التاريخية على حقبة الفراعنة القدماء وبانتقال الرواسب الثقافية والمادية وانتشار الثقافة من مبدأ النظرية الانتشارية مثلما تقول ميد نستطيع التكهن بأن نفس ما عبده الفراعنة والمصريون القدماء هو أنزار أو إله الماء ويعرف في مصر الفرعونية حسب الكتابات الهيروغليفية بأمون

وعادة رش العروس بالماء إثر خروجها من منزل الأبوة إلى منزل الزوجية ممارسة تهدف إلى إعادة إحياء خرافة لا يعرفها الكثير من ممارسيها اليوم ولا يعرفون مدلولها فهم بالتالي يمارسون طقسا ميثيا يدعو إلى تقديس الماء، وعند التقصي في موضوع

المياه والقداسة والممارسات المتناقلة جيلا بعد جيل نجد رعيلا من الشيوخ يسردون لنا قصة القايمة ذلك الطقس الذي كان يمارس استحضارا للأمطار في منطقة تبسة.

كلمات مفتاحية: الماء، المقدس، الطقوس، تبسة، عادات الزواج.

Abstract

Once you mention the word rite, ceremony or rituals and linked it to baptizing and ritual ablution and holy water; it seems to any one of us a strange magic exercise a human do among his own social environment, including the ritual of the life cycle through this water. Water is a sacred unity in all the practices, it is like the element emitting life and the move from a stage to another; from death to life and from life to death, and all the historical and archaeological discoveries confirm that the man does not settle in a place where there is no water, we have chosen this subject to discuss the significance value of water and its uses to the population of Algeria from ancient times to modern era, where human using his primary instincts felt and realized since the past that water is life, so he creates a legendary and mythological aura and a fairy stories about the water; and those who owns the water and live by the banks of rivers, valleys and estuaries had the power over others. Water is sacred in all religions and human laws, it is in high position in the religious thoughts and practices, water is life itself, and this big sanctification led water to be symbolic element of cleaning, purity and washing sins; according to ancient legends human has invented the gods of water and worshiped it by bringing various gifts and sacrifices; and we find the graphics of Tassili "Anjar", which represents the oldest reconstruction period in Algeria and North Africa, show a live material evidences on water and the role of it in reconstruction of settlements and populated areas; all the graphics represented the ram and bull, which indicates the worship of Baal, Enzar or bull. By investigation and as an attempting theory that we say that the primacy of the historical era of Tassili population on ancient pharaohs and by the transmission of cultural and physical sediment and the spread of culture with the principle

of theoretical diffusivity as it says Mead we can speculate that Pharaohs and the ancient Egyptians has worshiped Enzar or water god known in Pharaonic Egypt in hieroglyphics as Amon.

Usually spraying water after the exit of bride from her parenting home to her marital home is an exercise aims to revive a myth a lot of its practitioners does not know today and do not know its significance value thus they practice ritual Myth calls for the sanctification of water. When investigate the theme of water and its holiness and the practices transmitted from generation to another, we find a cohort of elders recounting us the story of Alqaaimah, that rite which they was practicing in order to evoke rain in the Tebessa region.

Keywords : water, ceremony, riuals, mariage, Tebessa.

مقدمة

إن الجنس البشري قطعة غير قابلة للاجتثاث من الطبيعة إلا بفعل فاعل ألا وهو الإنسان نفسه فمعمرو الأرض ومنذ قديم الزمان وفي الكثير من القصص والأساطير والروايات بقوتهم وضعفهم وتأثيرهم وتأثرهم بمن حولهم وبالطبيعة وحدة لا تقبل الفصل من هذا الكون الفسيح، فهناك دوما صلة وثيقة بين الإنسان ومحيطه الطبيعي الذي يعيش فيه، ومن خلاله فكر وتدبر وأبرق بصره وعقله للتفكير وصنع فكره الخاص به، بصفته البدائية المتعارف عليها والتي تركت ما يسمى الموروث الثقافي اللامادي إلى غاية اليوم بخلق أفكار حداثية جديدة، نحن اليوم نعيش عصر ما بعد الحداثة عصر الإغتراب الذي خلفته التكنولوجيات الجديدة والتي آتت آكلها وثمارها، بجعل الإنسان كائن اجتماعي تكنولوجي، وكائن منعزل في وسطه الاجتماعي، ربما بعد الإنسان عن كل ما هو تقليدي وتغير المفاهيم الخاصة بالحياة اليومية والتعاملات الإنسانية هو السبب، ربما كان الإنسان كذلك ولكن المفيد هو حنينه إلى جمالية الماضي فعند ذكر كلمة طقوس أو طقس وربطه بالتعميد و طقوس الاغتسال والمياه يخيل لأي فرد منا عملية ممارسة سحرية غريبة لا يتقبلها العقل والمنطق، لكن الحقيقة هي أن الممارسات والطقوس عادات يومية متجذرة في حياتنا اليومية فما يعرف في الانثروبولوجيا بالعادات والطقوس بصحيح العبارة هو عبارة عن شعائر ومناسبات في بعض الأديان وترانيم وأعراف في أديان أخرى ومناطق أخرى. ومن بين الطقوس المرتبطة بحياة الإنسان طقوس دورة الحياة من خلال الماء فالماء يشكل وحدة مقدسة في جميع الممارسات، فهو بمثابة العنصر الباعث للحياة والدخول من مرحلة إلى مرحلة من مرحلة الطفولة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الشيخوخة، ومن الموت إلى الحياة عن طريق غسل المولود الجديد، من الحياة إلى الموت بواسطة تغسيل الميت، من الرجس إلى الطهارة، من الاتساخ إلى النظافة، من العطش والظمأ إلى السقيا فجميع هاته المراحل

يكون الماء فاعلا أساسيا فيها ورمزا من رموزها لذا كانت له الأهمية البالغة في حياة الشعوب والأفراد والمجتمعات لما له من علاقة رمزية بحياة الأفراد والمجتمعات وعليه كان ولابد من الرجوع قليلا إلى الوراء لتقصي ظاهرة تقديس المياه عبر التاريخ الإنساني لأن جميع الإكتشافات التاريخية والأثرية تؤكد على أن الإنسان لا يستقر في مكان لا يتوفر به الماء، وقد اخترنا هذا الموضوع للبحث في دلالة الماء واستخداماته لدى سكان الجزائر من العصور الغابرة إلى عصرنا المعاصر وعليه نتساءل:

- هل ظاهرة تقديس المياه كانت عادة متأصلة لدى السكان المحليين للجزائر أم أنها جاءت نتيجة إنتشار هاته الظاهرة بين سكان العالم القديم ؟
- هل وصل تقديس الماء وتدنيسه إلى مرحلة العبادة في الجزائر العتيقة ؟
- هل كانت طقوس التقديس والتدنيس مقتصرة على فترات تاريخية معينة أم أنها حافظت على قوتها لمراحل لاحقة ؟

أولا: قدسية الماء عبر التاريخ:

شعر الإنسان منذ القدم وأدرك بغرائزه أن الماء هو الحياة، فقام بإنشاء هالة أسطورية وقصص خرافية حول المياه وكانت الغلبة لمن يمتلك الماء ويعمر ضفاف الأنهار والأودية والمصبات، فكانت الإمبراطوريات العظمى تشن حروبها لتجديد مواردها المادية والمالية بالاستيلاء على مناطق تتوفر على الأرض الخصبة والمياه العذبة، وبالتقصي قليلا في صفحات التاريخ نجد أن عبادة الماء وتقديسه كانت منتشرة انتشارا كبيرا بين الحضارات البائدة بكل أشكالها البدائية والمتحضرة وفي جميع الأديان المتعارف عليها، وأدل شيء على أهميته وتقديسه هو سباق الدول المتقدمة بعلمائها على إثبات وجود المياه في الكواكب الأخرى للمجموعة الشمسية، لأن وجود الماء يعني الحياة.

وقد بحث العديد من الأنثروبولوجيين والمؤرخين في إشكالية الماء لذا فالموضوع ليس بالجديد في مجال البحث ، وأرجعوا وجوده والأساطير المرتبطة به إلى مراحل ما قبل التاريخ ، وقد ارتبطت جميع الممارسات المتعلقة به بمفهوم القداسة والتي تم التأسيس لها كصورة من صور الممارسات الثقافية والاجتماعية داخل الفضاء الاجتماعي، حيث تقام طقوس شعائرية احتفالية في

أماكن المجاري المائية والمنابع الطبيعية[1] وبالأخص المنابع التي تتفجر طبيعيا وما يرتبط بها من هالات القداسة بأن هاته العيون عيون انفجرت لأن الولي الصالح الفلاني مر من هنا أو أقام هنا. ... وتصبح مقصد سياحيا يحج إليه السكان والسامعون من كل صوب قصد التبرك والتشافي من «العقر» ومن «الحسد» ومن «السحر»، وتستغل أحسن استغلال لتصبح مزارات لفئة النساء بالأخص قصد طرد سوء الطالع والحسد والزواج والإنجاب وفك قيود العوازب وربط القيود للحبيب. ... وغيرها من الممارسات الخاصة بالزيارة والتبرك[2].

1/ عصر الباليوليت:

تمثل طقوس الموت والبعث والحياة الأبدية وطقوس أساطير ما قبل الموت وما بعده واحدة من أسس أي دين وسواءفي الفترات الما قبل التاريخية وفي الحضارات التاريخية وفي حقبة الباليوليت نلمح بصورة إجمالية مجموعة من العناصر الأساسية التي تؤسس لهذا الدين ومن بينها التعاويذ المعبرة عن الماء حيث أن الماء لدى اهل عصر الباليوليت، يمثل سوائل الرحم ومادته المغذية للطفل ولولا الماء لما عاش الإنسان ولما تكون جنينا في بطن أمه اما السوائل الحمراء فتشير إلى الدم الذي هو قوة وحياة وغذاء وسمة لعالم الرحم الذي يتكون من 90 % من المياه [3].

2/ عصر الميزوليت:

في فترة ما قبل 6000 إلى 4000 سنة مارس الناس العبادات الطوطمية[4] التي هي عبادة سحرية متطورة عن عبادة الحيوان التي سادت عصر الباليوليت، ويحركها الاعتقاد بان بعض الحيوانات والنباتات وبعض الأشكال المادية وظواهر الطبيعية هي الجد الأول والحامي لجماعات بشرية معينة تربطها أواصر القربى، ونذكر من بين أهم سكان تلك الفترة هنود الشامان حيث

[1] – أحمد ديب شعوب. المعيوش الاسطوري مجلة الفكر العربي. عدد36، 1985، نقلا عن مقالة لـــ محمد أسويق. شكل قدسية الماء عند الأمازيغ. الموقع [[http://www.freerif.com/?p=35415

[2] – جيمس فريزر. ت. أحمد أبوزيد. الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الجزء 1، ط 2، 1998، ص 62.

[3] – خزعل الماجدي. أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، سلسلة التراث الروحي للإنسان، دار الشروق، عمان، 1997، ص 56.

[4] – الطوطم هو أي كيان يمثل دور الرمز للقبيلة، وأحيانا يقدس باعتباره المؤسس أو الحامي، أول من أدخل اصطلاح الطوطم إلى اللغة الإنجليزية هو الرحالة ج. لونك عام 1791 إذ استعمله في كتابه "رحلات مترجم هندي وأسفاره"، واستعمل كلمة الطوطمية في الدراسات الأنثروبولوجية لأول مرة العالم الإسكتلندي ج. مكلينين في عام 1870 عند كتابته مقالا بعنوان "الطوطمية".

كان كبير كهنة الشامان يمثل الشخص الخارق القوة والذي بإمكانه الاتصال بالأرواح وتسخيرها لأعمال الصيد واستنزال المطر والشفاء من بعض الأمراض بواسطة مياهها.

وعليه كانت معتقدات عبادة الطبيعة موجودة وبكثرة في هاته الفترة ولكنها لم ترقى إلى درجة الألوهية بل يوجد دوما وسيط لجلبها يقومون بعمل طقوس ومراسم وشعائر للتبرك والتضرع لديه عله يمدهم بنبع متفجر من المياه أو ينزل عليهم الامطار لزيادة قوتهم [5].

3/ عصر ما قبل التاريخ:

أثارت إحدى الاكتشافات الأثرية في مدينة سامراء العراقية للوحة حجرية من جيل الألف السادسة قبل الميلاد انتباه علماء الآثار والأنثروبولوجيين إلى شكلها حيث كان يعتقد أنها رمز النازية في شكلها الحديث ومنها استمدت شكلها للصليب المعقوف في جهاته الخارجية وبعد التدقيق والعناية العلمية المركزة، تبين أنها صورة لأربعة نسوة عاريات يؤدين رقصة لاستنزال المطر في شكل دائري هاته الرقصة يميزها طابع سحري تنثر كل واحدة منهن شعرها إلى جهة من الجهات الأربعة، ويتضح لنا أن هذا الطقس يجرى في منطقة صحراوية مجدبة بدليل وجود ثماني عقارب حول النسوة بمعدل اثنين للواحدة ويلتقي رأس كل عقرب عند نهاية شعر المرأة مع أطرافها السفلية وكأن العقارب تمارس هي في حد ذاتها هاته الرقصة في شكل دائري معاكس للشكل الذي تقوم به النساء ،

وباستقراء الوضع الذي تقوم به النساء نجد أن عملية نثر الشعر هو طقس سحري لتهييج الرياح وتحريكها في منطقة معين كلما تشابك شعر المرأة الخصب مع اخرى، وبعملية جلب الرياح فهناك عملية طردية ألا وهي جلب الغبار والغيوم فتمطر السماء، وهو ما يسمى في اللغة الطقوسية لأهل سامراء قديما (آكيتي)[6] وهو المرادف لعيد رأس السنة البابلي ويقسمها اللغويون إلى آ = الماء أو المطر كي = الأرض، تي = فعل معناه التقرب والتضرع.

كما وجدت أيضا رسوم وآثار أخرى في واد الأردن ومنطقة حيفا دالة على التصورات الطبيعية للخصوبة والمياه والأمطار حيث نجد شكل للجديان الأربع[7] يطوفون حول بركة من الماء وشجرة في المنتصف بينهم وقرونها تقوم بعمل عمل المروحة في شكل دائري كما ذكرنا آنفا، حيث تمثل الجداء البركة والنبتة الخصوبة والشكل الدائري حركة الرياح قصد الاستمطار ، كما

[5] – المرجع نفسه. ص 66.

[6] – خزعل الماجدي. المرجع السابق، ص 107.

[7] – المرجع نفسه. ص 109.

تحتوي في بعض الأحيان على رمز البرق أو ما يشبه حرف U متموج وهو إشارة قوية وواضحة على محاولة إنزال المطر والخصوبة.

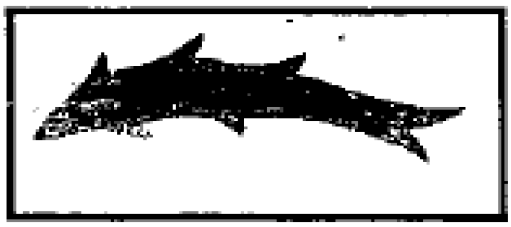

شكل رقم 1: رمز العضو التناسلي الأنثوي

يتكرر هذا الشكل في الأطباق الفخارية لسومر وآشور وبابل القديمة يمثل شكل سمكة ورماحا متخذة نفس الإتجاه وشكل الفرج من ناحية آخرى، وهو ما يدل على طقوس وممارسات تعبدية لجلب الماء والمطر وكثرة الخصوبة. ولهاته الرموز والنقوش دلالة كبيرة على الاعتقاد بقوة المياه وقدرتها العجيبة على بعث الحياة وإعادة إنتاج الجنس البشري.

ثانيا: الماء في الحضارات والأديان القديمة:

1/ الحضارات الغابرة:

من خلال الدراسات التاريخية نجد ما يسمى بالآلهة إنانا[8] قد اكتسبت الخلود وطعم الحياة الأبدية بتناولها للمياه وماء الحياة، بعد وصولها لحافة الموت. وقد فرقت الدراسات بين انواع الآلهة للمياه فرقا جليا حيث أن آلهة المياه العذبة هي (الالهة ابسو) والمياه المالحة (الآلهة تيامت).

فالإلهة (تيامت) مصدر أساسي للموت والأمراض عند أهل بابل، فيتم الإحتفال رمزيا بداية كل سنة بطرد الآلهة تيامت التي تذهب مع نهاية كل سنة واستقبال الألهة ابسو التي تأتي بالخيرات والقطرات المتساقطة من السماء والتي تشفي المرضى والأرض والجرحى فهي آلهة المياه الطيبة، وعند تحليل العملية أنثروبولوجيا نجد بأن مدلول التساقط والنمو هو مدلول الحياة البشرية فهاته الأفكار كانت لها بالغ الأثر في التفكير الإنساني فحسب الأساطير الدينية القديمة كانت قطرات الأمطار تشبه مني الرجال (السماء المانحة) إلى النساء (الأرض المخصبة).

[8] – بوتيرو وجان وكريمر. ت. الاب البير ابونا. اسطورة اينانا عشتار، بغداد، 2005، ص 163.

2/ الأديان القديمة:

أرخت لتقديس المياه، فالمصريون القدامى كانوا يعتقدون أن عرش الآلهة يستوي على الماء، واليونانيون القدامى قدسوا البحار وبجلوا إلهها بوسايدون وجعلوه من أهم الآلهة ورمز القوة، كما كان الماء مشاركاً كاله للخصوبة والطعام، أما السومريون فرأوا أن الماء هو أصل الوجود والحياة.

3/الديانات السماوية[9]

في المسيحية نجد أهمية الماء في إقامة مراسيم التعميد ولا يعوض بمادة أخرى. حيث تقول أساطير المسيحية أن المسيح (ع) تم تعميده بالماء الجاري (نهر الأردن) على يد النبي يحيى يوحنا (ع) فكان لهذا التعميد أثره الخاص والمهم بلاهوت المسيح والكنيسة من بعده. فيدخل الماء في عملية التعميد الكنسي وصلوات القربان المقدس عند المسيحيين كرمز للتطهير من الذنوب.

أما اليهودية فالماء عندها مقدس تقديسا كبيرا وهذا يظهر جليا واضحا في مراسيمها الدينية، وفي فكرها أيضا (روح الله يرف على وجه المياه) التوراة\التكوين. ومن فرائض اليهودية أيضا استخدام الماء في طقوس التنظيف وتبرئة الذات من الذنوب وفي التعميد أحيانا. كما يعمد اليهود إلى غسل أياديهم قبل كل وجبة طعام وعن طريق تقليب الماء بين الكفين اليسرى واليمنى بمثابة تبرك.

الماء مقدس في جميع الأديان والشرائع، فهو في مرتبة عالية في الممارسات والفكر الديني الإسلامي (وجعلنا من الماء كل شيء حي) القران الكريم، فهو الحياة في حد ذاتها، وهذا تقديس كبير للماء. ولا يخلو أي مسجد من مصدر للمياه النظيفة السائلة يستخدمه المسلمون للوضوء قبل الصلاة خمس مرات في اليوم

وبالتالي فقد كان الماء عنصرا رمزيا للتنظيف والطهارة وغسل الذنوب عند البشر. والله سبحانه تعالى قد خلق الإنسان من ماء وتراب وكانت معظم المجتمعات البشرية تعيش قرب المياه لكي يضمنوا الماء الشروب والغذاء الوفير لهم ولأنعامهم، ويقيمون عمليات التطهير وطقوس العمادة والغسل والوضوء ومختلف الممارسات المتعلقة بالماء وقداسته.

[9] – الترميذا علاء النشمي. أسطورة الماء في الأديان، فكرا وطقسا، الوسيط على الخط
http://www.mandaeanunion.org/ar/history/item/268-legend-of-the-water-in-the-religion,-thought-and-ritual] تاريخ الزيارة: 2016/05/05.

رابعا: تأليه المياه:

حسب الأساطير القديمة وتبعا للدراسات التاريخية فإن أهل بابل وآشور هم أول من ابتدع وعبد الآلهة الخاصة بالمياه، وقد عبدت وتُقُربَ إليها بمختلف القرابين والعطايا ونذكر منها:

- الإله إيد ID: كان الإله إيد هو إله المياه العذبة وتوزيعها.
- الإلهة نينا NINA: ألهة الينابيع والأنهار والأمطار المتجلية بين الغيوم وتحمل ينبوع الحياة الفوار [10].
- الإله نندارا Nindara: وهو إله البحر والعارف بخباياه والسبب في هدوؤه وهيجانه والسبب في غرق السفن.
- الإله أنبيللوا Anpillou: هو مسؤول الانهار والبحيرات والماء العذب وهو صاحب النهرين وحاميهما دجلة والفرات[11].

أما عند اليونان فقد كانت الألهة المشهورة هي:

- إيزيس وبوسايدون ومينارفا[12] وكل له طقوسه ووظيفته التي يؤديها في الحفاظ على السلم والسلام وإعادة البعث والحياة الأبدية من خلال الحفاظ على الماء ومنحه لمحتاجيه والماء المقدس أو ما يسمى بإكسير الحياة والذي لا يمنح إلى للحكام والملوك العظماء والأشخاص في مصاف الآلهة[13].

وفي شمال إفريقيا وعند الأمازيغ بالضبط وبالتقصي في الكتابات التاريخية والأبحاث الأركيولوجية نجد رسومات الطاسيلي ناجر والتي تمثل أقدم فترة إعمار في الجزائر وشمال إفريقيا تدل على شواهد مادية حية على المياه ودور المياه في تعمير المستوطنات والمناطق الآهلة بالسكان، وكانت الرسومات جميعها تمثل الكبش والثور وهو ما يدل على عبادة بعل وعبادة أنزار أو الثور وبالتقصي وكمحاولة نظرية نقول بأن أسبقية سكان الطاسيلي التاريخية على حقبة الفراعنة القدماء وبانتقال الرواسب الثقافية والمادية وانتشار الثقافة من مبدأ النظرية الانتشارية مثلما تقول ميد نستطيع التكهن بأن نفس ما عبده الفراعنة والمصريون القدماء [14]هو أنزار أو إله الماء ويعرف في مصر الفرعونية حسب الكتابات الهيروغليفية بأمون العظيم ويقوم المصريون بالتقرب إلى آمون

[10] – الأمين محمود. "شعار سومر"، مجلة بغداد، العدد 8، 1958، ص 226.
[11] – خزعل الماجدي، متون سومر، بيروت لبنان، 1992، ص 153.
[12] – أ.أ. لينهارت. الآلهة والأبطال في اليونان القديمة، ت هاشم حمادي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، 1994، ص 19.
[13] – ميرسيا إلياد. ت. عبد الهادي عباس. تاريخ الافكار والمعتقدات الدينية ج 2، دار دمشق، دمشق، سوريا، 1987، ص396-399.
[14] – موريس كروزويه. تاريخ الحضارات العام المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت/ باريس، 1986، ص 39.

بالقرابين والذبائح والأطعمة ليمنحهم بركته ويجعل عامهم خيرا من الثمار والمحصول كما يهبون له عروس النيل وعروس النيل هو طقس يقيمه الفراعنة القدماء باختيار حسناء عذراء يتقربون بها إلى آمون العظيم بتزويجها إياه عن طريق إلقائها في النيل وقت الفيضان وإلقائها وقت الجفاف والانحسار حتى يضمن لهم العام الجيد الخالي من الفيضان والقحط، وهو ما كان يقوم به آهل الصحراء في الطاسيلي قديما حيث كانوا يتقربون إلى الآلهة التي يعبدونها سواء كانت بعل بحكم الغزو الفينيقي لشمال إفريقيا وانتقال عبادة بعل الأهة إلى هاته البلاد[15] أم أنزار.

خامسا: الماء في الميثولوجيا الأمازيغية:

اتفق الأنثروبولوجيون ورواد الأدب الشعبي وعلماء التاريخ على أن الأسطورة[16] هي صناعة جمالية إنسانية تجمع بين السرد الأدبي أو الشعري الفني مع الجانب العقدي الميثي في زمان ومكان محدد لا يصلح أن يتجدد مرة أخرى، ولها سلطة قوية على الناس وعلى معتقداتهم وتخيلاتهم وليست الخرافة أو الأسطورة هي الدين.

1/ عروس الماء

من بين الممارسات المرتبطة بقداسة الماء في الجزائر عادة رش العروس بالماء إثر خروجها من منزل الأبوة إلى منزل الزوجية وهي دلالة على طقس من طقوس العبور، يقول فان قـــاناب هناك فئة معينة من الطقوس التي ''ترافق كلّ تغيّر في المكان والحالة والموقع الاجتماعي والسن'': إنّها طقوس العبور[17]، هذا الطقس عبارة عن ممارسة تهدف إلى إعادة إحياء خرافة لا يعرفها الكثير من ممارسيها اليوم ولا يعرفون مدلولها فهم بالتالي يمارسون طقسا ميثيا يدعو إلى تقديس الماء وهي كما يلي ، في قديم الزمان وفي أرض الشاوية الأمازيغ، العاتية ضد كل الدخلاء، وحسب الروايات من الشيوخ والعجائز الذين يعرفون مدلول الطقس وإيجابياته عاشت فتاة فاتنة الجمال يطلق عليها " تيسليت " والتي تعني الحسناء أو الفاتنة، وقد كانت خجولة شديدة الحياء ومحبة لينابيع المياه و الأنهار، فكانت تتجول بين البرك والأنهار والمجاري المائية ترى في الماء الحياة تلامس الماء وتغني وتزور جميع مصادر

[15] – كارل ارمسترونغ. ت. وجيه قانصو. تاريخ الأسطورة، ناشرون الدار العربية للعلوم، لبنان، 2008، ص 47.

[16] – مارسيل ديتان. ت. مصباح الصمد. اختلاق الميثولوجيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2008، ص 11-13.

[17] – نيكولا جوري. ت. المنتصر الحملي. طقوس العبور، المقال منشور بالفرنسيّة على موقع SCIENCES HUMAINES.COM ضمن ملفّ بعنوان: Les hommes en question. Pouvoir, identité, rôle Classiques, Arnold van Gennep (1873-1957)

المياه من الجداول والروافد ، لتلقي عليها التحية و تغترف من كل واحد منها شربة ماء منعشة، وتعرف جميع المصبات المائية والينابيع بأسمائها فكان هذا هو حالها ترفض الأهواء والنزوات الخاصة بالشباب وفي كل يوم يزيد عدد الطامعين في قبول طلب الزواج منها. و مع مرور السنين زادت الفتاة جمالا وانطواءا، إلى غاية يوم كانت تيسليت ترتوي من إحدى البحيرات الصغيرة، صادف و كانت السماء ملبدة بسحب كثيفة يقودها إله المطر آنزار نحو إحدى البلدات ليسقي أرضها و يحي زرعها و يبشر قاطنيها بموسم حصاد وفير، ولوهلة انتبه الإله آنزار لشعلة مضيئة فوق الأرض بلغت انوارها عالم الآلهة فقرر التحرك نحو تلك المشكاة البيضاء المضيئة، والتقط تلك الألحان الأنثوية العذبة التي كانت تؤديها بلسان أمازيغي شاوي فقرر الإقتراب أكثر من صاحب الصوت الشذي وحبس أنفاسه يسترق النظر لإنسية حسناء لا تستحق إلا أن تكون في مصاف الآلهة لم يكن بنو جلدتها من البشر ليروا ما رآه آنزار وإنما صدقها وعفتها وإنزوائها عن الشهوات هو الذي أوصلها إلى درجة الجمال الروحي ، منذ ذلك اليوم قرر آنزار الاستقرار فوق سماء الأوراس بعد أن شدته تيسليت بكل ذلك الخجل و الحياء و الأنوثة، فقد تعلق بتيسيلت وبفضلها راح يغدق على بلاد البربر بكل أشكال المطر فاخضرت الأرض، و فاضت منها ينابيع المياه لتفيض معها كل أنواع الخير و الرزق على قوم تيسليت، الذين كانوا يلاحظون أمورا غريبة تحدث مع تلك الفتاة، التي كلما صعدت إلى الجبل و اختلت بنفسها منشدة أغانيها و قصائدها عن الماء و الحياء، و تحولت الفتاة إلى قديسة في الوقت الذي ظل فيه آنزار يعاني، وبعد تفكير عميق و نفس طويل قرر أن يقدم على الفعل و يصارح تيسليت بكل شيء، و يطلب يدها للزواج خاصة بعد أن استوفى مهره لها عبر كل ذلك الغيث الذي حول أرض أهلها إلى جنة. ففي صبيحة أحد الأيام و بينما كانت الفتاة تجلس على ضفة إحدى تلك البحيرات الكثيرة التي أهداها لها عاشقها دون أن تدر، وإذا بصاعقة ضربت الأرض بقوة اهتز لها كل شيء، ظهر أنها قد تحولت بشكل عجيب إلى رجل شاب وسيم افزع تيسليت التي تسمرت خوفا. تقدم إليها معرفا عن نفسه و شرح لها أنه لا يمكن للبشر العاديين أن يلتقوا بالآلهة، إلا إذا بلغوا قدرا عظيما من حسن الأخلاق و النقاء الروحي كما هي حال تيسليت، التي لم تستطع رفع بصرها عن الأرض بعد أن اقترب آنزار خجلا و حياءا وعرض عليها حبه ورغبته باتخاذها خليلة، فرفضت بشدة و أخبرته بأن هذا السلوك ليس من شيمها و هو يعتبر عارا و خيانة لوالدها و إخوتها و قومها جميعا.. حتى لو تعلق الأمر بإله، فهي لا تواعد أحدا في السر. حينئذ صارحها آنزار بأنه لا ينوي سوى اتخاذها زوجة له و قد عرض عليها الأمر ليفاجأ بوجه الشابة و هو يحمر خجلا و هي تنطلق نحو قريتها بين الهرولة و الركض.

لم يستوعب الإله السيد ما حصل، لكنه أدرك أن عالم البشر معقد أكثر مما كان يظن، لذلك استمر في الإلحاح على تيسليت التي ظلت تصده رغم أنها في نفسها كانت قد أعجبت بشخصه، و بادلته مشاعر الحب و تخفيها عنه، حتى شعر بأن الكيل قد طفح بعد أن استشعر أن ذلك الحب قد انتزعه من عالم الآلهة المثالي ليغرقه في عالم البشر وقرر القيام بمحاولة أخيرة، فقد صارحها بأنه واقع في حبها إلى حد الجنون، لكن من دون فائدة، حينها شعر أنزار بإهانة كبيرة فانقلب الحزن إلى غضب تطايرت شراراته من عيني الشاب الوسيم الذي تحول إلى صاعقة مدوية ارتدت نحو السماء بلا رجعة، توقف معها المطر عن النزول نهائيا وعادت شمس إفريقيا الحارقة لتبسط الجفاف على كامل البلاد لتؤول إلى البؤس و الشقاء، فقررت أن تقبل بطلب آنزار لتكون زوجة له، فراحت تناجيه في خلواتها و صلواتها متضرعة له راجية عودته. و هو ما حدث يوم لمح القوم ركاما أسود ثقيل في الأفق تنطلق من كبده ومضات البرق المتفرقة، فقد جاء الغيث الكثير و تهاطلت الأمطار بغزارة و رقص السكان تحتها مقيمين الولائم و الاحتفالات، في الوقت الذي سارعت فيه عروس المطر الخطى و هي تصعد الجبل لتلاقي عريسها الذي كان في قمة السعادة و البهجة، فقد حملها بين ذراعيه و طار بها نحو السماء في شكل وميض خاطف لم يترك خلفه سوى السعادة و الخير، و تحولت تيسليت إلى ما يُعرف اليوم بقوس قزح، التي تعتبر عروس المطر في الثقافة الشعبية الجزائرية.

و هكذا توارث سكان الجزائر لقرون طويلة عادة رش موكب العروس بالماء في تمثيل رمزي إلى الفتاة التي شكلت صورة الحياء و التعفف و الكبرياء و النقاء، و هي الخصال الكفيلة بجلب رجل من المعدن النفيس كآنزار فيأتي معه الخير و العطاء.

2/ طقس القايمة في أرياف مدينة تبسة:

لمحة عامة عن منطقة الدراسة:

منطقة بئر الذهب ولاية تبسة على أساس أنها منطقة ريفية فلاحية بالدرجة الأولى وما زالت بكرا من حيث الدراسات، مع احتوائها على رصيد ثقافي تاريخي عريق ما زال خاما على السليقة يحتاج الدراسة والتعمق، كما أنها لعبت دورا كبيرا في موقف الجزائر من القضية الفلسطينية إذ كانت تأوي الإخوة الفلسطينين المرحلين من الأرض المغتصبة تحت اسم قرية صبرا وشتيلا تيمنا بمخيمات اللاجئين التي أبادها وزير الدفاع الإسرائيلي السابق إرييل شارون، هذا ناهيك عن دورها الثوري الجهادي في الثورة التحريرية المباركة.

في عهد الاحتلال الفرنسي سميت بئر الخنافيس في هاته الفترة وكانت مركزا فلاحيا صغيرة وقرية امبريالية تابعة للاحتلال الفرنسي مع قرية حلوفة التي كان اسمها حسب الشهادات مركز رعاية أيتام الحرب centre d'éducation des orphelines هي الأقرب لتسمية عرش الورفلة بتحريف هاته الكلمة orphelines = ورفلين ورفلي ورفلة وكانتا هاتان القريتان بئر الخنافيس وحلوفة سابقا هما مركزي التجمع الحضريين في بلدية بئر الذهب عموما في تلك الفترة التي شهدت تدشين مدرستين ومراكز للمستوطنين الذين قاموا بنهب خيرات المنطقة فلاحيا.

تنتسب منطقة بئر الذهب طوطميا[18] إلى عرش سيدي يحي بن طالب ويسمون أنفسهم بأولاد سيدي يحي ويضم هذا الخليط السكاني المتماسف عدة ألقاب وأسماء عائلية عاشت متماسكة طيلة حقبات تاريخية طويلة.

كما أن أصل التجمع الرئيسي في بئر الذهب هو تجمع ريفي، ظهر في إطار القرى الاشتراكية سنة 1977 حيث كانت قرية تضم مدرسة ومسجدا ومجموعة من المساكن، وقد كانت تابعة لبلدية الحمامات إداريا، وتسمى منطقة بلكفيف، لترقى إلى مصاف البلديات سنة 1985 كبلدية تابعة إداريا لدائرة الكويف حيث بني بها 20 مسكنا إضافيا لفائدة الفلسطينيين المرحلين من مجزرة صبرا وشتيلا بعد زيارة الرئيس الفلسطيني الراحل أبو عمار ياسر عرفات، لتسمى بلدية بئر الذهب مركز ب صبرا وشتيلا.

الروايات المتداولة

نستطيع القول بزوال ظاهرة الممارسة الطقوسية المرتبطة بفصل الجفاف وطريقة طلب الأمطار والبحث عن المياه ومصادرها في الجزائر منذ القدم، إلا بعض الممارسات التي نجدها في شكل روايات تعد من التراث الثقافي اللامادي الذي وجب حفظه ونقله للأجيال كاملة، فعند التقصي في موضوع المياه والقداسة والممارسات المتناقلة جيلا بعد جيل نجد رعيلا من الشيوخ يسردون لنا قصة القايمة.

القايمة في الموروث الثقافي التبسي هي عبارة عن عروس المطر تمثل تيسيلت التي ذكرناها آنفا، فعندما يضرب موسم الجفاف بقوة أو تكون الأمطار في غير وقتها واستبطأها السكان يرسلون النساء والأطفال في المناطق الريفية المأهولة إلى منطقة سهلية وسط الدوار ترفع فيها عصا السداية (الآلة التقليدية التي ينسج بها الجزائريون الصوف والقشابية والأقمشة المختلفة)

[18] – استعمل علماء الإنسان مصطلح "الطوطم" لتحديد النسب الوهمي غير الواقعي أي غير الدموي عن طريق النسب والقرابة أو التبني إلى روح معين أو كائن معين جمادا كان أو حيوانا آو إنسانا وهو يستعمل كثيرا في المجتمعات الصغيرة ولدى الشعوب النامية فنجد قبيلة النسور مثلا في جامايكا تنتمي إلى نسب خرافي هو النسر لأنها ترى فيه قوة العظمة والشموخ والحماية لها من كل خطر وتتقرب إليه بالقربان والضحايا.

وهي عصا طويلة جدا يتم إيقافها في وسط الساحة وتعلق فيها الخرق الخضراء والحمراء والصفراء مختلفة الألوان ومحارم الرأس (الفولارات) ويتم عمل حلقة من الأطفال الصغار (دلالة البراءة والعفة والطهارة لأن الأطفال يعبرون عن الصفحة البيضاء وإذا دعوا الله يستجيب لهم حسب روايات الشيوخ) ويرقص الأطفال في شكل هزلي مليء بالدعابة ويرددون:

القايمة يا القايمة لبست الأخضر وربي يعطينا المطر

القايمة يا القايمة وربي يعطينا صابة ودنيا عايمة

القايمة في وسط المراح وربي يعطينا الماء وتكثر الأفراح.

وبعد عمل هذا الطقس يذهب الأطفال في موكب طفولي ويجمعون المؤونة من المنازل الريفية المختلفة ويطلبون الحلوى والمعروف وعلى كل فرد من أفراد الدوار أن يعطي للسائلين ما سئلوا وإلا فسدت النية و لم يسقط المطر، بعد ذلك يتم عمل طعام شعبي ألا وهو الكسكسي وتكون هناك عزومة شاملة لأهل الدوار والريف، والريف سابقا كان أكثر إعمارا من المدينة ويتم الإحتفال وإخراج المعروف بين الأهالي فيما بينهم. وما أن تتم هاته الممارسات الرمزية الدالة على التكافل العضوي والتعاضد الإجتماعي إلا ويسقط المطر في ذلك المساء حسب الروايات.

خاتمة:

طبع التغير الاجتماعي كافة المجالات وعلى كافة الأصعدة لجميع التركيبات البشرية وبفعل التحولات البيئية والإحتكاك مع مختلف الأجناس، بقيت كل طقوس تقديس الماء حاضرة في المعتقد الشعبي، لكنها قراءاتها تغيرت بفعل العامل الديني والوازع الأخلاقي الذي يتهمها بالوثنية في حين أنها عملية ممارسة في جميع مراحل الحياة اليومية دونما إدراك، فالماء هو الوسيلة الوحيدة التي يطهر بها الانسان نفسه من التعب والأوساخ ويمر بها من مرحلة إلى مرحلة ومن وضعية إلى آخرى فهو المقدس الذي يذهب الرجز والنجاسة، وهو مصدر الحياة والخصوبة والمؤشر الإقتصادي على قوة الدول والجماعات البشرية فلولا الماء لما كانت هناك زراعة ولما كان هناك حصاد وأكل ولما كانت هناك حياة، وادل شيء هو حفاظ العيون والينابيع والأودية المقدسة على سلطتها الرمزية القوية فيمنع منعا باتا تدنيسها وتلويثها لأنها الوحيدة التي تقف في وجه الموت فالماء يساوي الحياة وجميع البحوث

الأنثروبولوجية والسوسيولوجية تؤكد بأن الحضارة تستمد حياتها من البداوة التي تنفع الحضر بما يحتاجه من مزروعات ومواشي بواسطة المياه فمستقبل الريف دوما يحدده المطر وبالتالي فالإنسان الوثني القديم كان على دراية بجزء من المعرفة العلمية حول المياه والمواسم الفلاحية.

المراجع:

أولا: الكتب

1. لينهارت أ.أ. ت. هاشم حمادي. الآلهة والأبطال في اليونان القديمة، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، 1994.
2. بوتيرو وجان وكريمر. ت. الاب البير ابونا. أسطورة اينانا عشتار، ، بغداد، 2005.
3. الماجدي خزعل. متون سومر، بيروت لبنان، 1992.
4. الماجدي خزعل. أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، سلسلة التراث الروحي للإنسان، دار الشروق، عمان، 1997.
5. فريزر جيمس. ت. أحمد أبوزيد. الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الجزء 1، ط 2، 1998.
6. ارمسترونغ كارل. ت. وجيه قانصو. تاريخ الأسطورة، ناشرون الدار العربية للعلوم، لبنان، 2008.
7. ديتان مارسيل. ت. مصباح الصمد. اختلاق الميثولوجيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2008.
8. كروزويه موريس. تاريخ الحضارات العام المجلد الأول، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1986.
9. إلياد ميرسيا. ت. عبد الهادي عباس. تاريخ الافكار والمعتقدات الدينية ج 2، دار دمشق، دمشق سوريا، 1987.

ثانيا: المواقع الإلكترونية

1. شعوب أحمد ديب. المعيوش الأسطوري، مجلة الفكر العربي، عدد 36، 1985، نقلا عن مقالة لـــ محمد أسويق. شكل قدسية الماء عند الأمازيغ، الموقع [[http://www.freerif.com/?p=35415
2. الأمين محمود. "شعار سومر"، مجلة بغداد، العدد 8، 1958، نقلا عن الترميذا علاء النشمي. أسطورة الماء في الأديان، فكرا وطقسا، الوسيط على الخط [http://www.mandaeanunion.org/ar/history/item/268-legend-of-the-water-in-the-religion,-thought-and-ritual] تاريخ الدخول: 2016/05/05

3. النشمي الترميذا علاء. أسطورة الماء في الأديان، فكرا وطقسا، الوسيط على الخط
http://www.mandaeanunion.org/ar/history/item/268-legend-of-the-water-in-] [the-religion,-thought-and-ritual] تاريخ الزيارة: 2016/05/05

4. جورني نيكولا. ت المنتصر الحملي طقوس العبور، ، المقال منشور بالفرنسيّة على موقع SCIENCES HUMAINES.COM ضمن ملفّ بعنوان: Les hommes en question. Pouvoir, identité, rôle Classiques Arnold van Gennep (1873-1957)